الأربعاء: 2023/12/29
التّوقيت: 13:10 – 14:20
عن بعد

الدرس رقم 08: قيمة الذوق في نظرية النظم

إن الباحث المتتبع لدراسة عبد القاهر لنظرية النظم يرى أنه جعل النظم أساسا للنقد ومرجعا لبيان القيمة الفنية في العمل الأدبي، فاتخذوا النظم أساسا يرجعون إليه في تناولهم للأعمال الأدبية بالنقد والتحليل، كما أنه جعل من النظم قوانين ترشد الذوق العربي إلى الكشف عن مرتبة الكلام وقد بذل أقصى جهده لتستقر فكرته في العقول، حتى أضحت نظريته السليمة مرجع النقاد والباحثين، فقد صنع ميزانا يستطيع به الناقد أن يزن الصورة البيانية، ويرد عناصرها البلاغية إلى طريقة التأليف للعبارات، ومنه استمدت فكرة البنية العميقة والبنية السطحية التي نادى بها اللغويون الغرب مثل تشومسكي، وأرسخ كذلك فكرة التعليل لكل ما تستحسنه أو تستقبحه فيقول «لا بد لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك جهة معلومة وعلة معقولة».

لقد اعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبي الخالص اعتمادا كليا في كل ما قرره من أحكام، مؤكدا أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع، ولا يجد لديه قبولا، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بان لما يومي إليه من الحسن واللطف أصلا، وحتى يختلف الحال عليه، عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة، ويعري منها أخرى، وحتى إذا عجبته عجب، وإذا تنهنه لموضع المزية انتبه.

وقد أثر عبد القاهر البلاغة العربية والبيان العربي أثره جليلا، بما كتب في نقد الأساليب وتحليلها، واستنباط الفروق والخصائص فيما بينها، وبما عرض له من أحكام نقدية دقيقة، على الأساليب وضروب النثر والشعر.

وأنه ليس لنظرية عبد القاهر في النظم من القيمة ما لتطبيقاته فهناك يظهر ذوقه العربي السليم. ذلك الذوق الذي لا يمكن أن يغني في الأدب عنه شيء، ونظرية عبد القاهر في رمزية اللغة ورد المعاني إلى النظم ومنهجه في نقد النصوص نقدا موضعيا، ما هي إلا مراحل تنتهي به إلى الذوق الذي يدرك الدقائق ويحس بالفروق ووجوه الكلام وأسراره، وإحساس عبد القاهر الأدبي السليم سابق دائما لعقه، والحكم على النظم عنده هو النظر في المعنى منظوما، والذوق هو الفيصل الأخير في الحكم على هذه الدقائق، وإلى هذا فطن عبد القاهر بحسه الأدبي الصادق.

فالذوق عند الجرجاني يتحكم في نظم المعاني التي نعبر عنها، وتسوق فكرة النظم عبد القاهر إلى تخطي الإعراب والجملة البسيطة إلى الجملة المركبة، التي عنى بها في الدلائل، وفي أسرار البلاغة كذلك في مبحث التشبيه عناية فائقة، ونقدمها نقدا بيانيا أدبيا.

إن الأدب عند عبد القاهر فن اللغوي، فإخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون، وهذه النظرية الصحيحة هي موضع اعتزازنا بتفكير عبد القاهر، الذي يبدأ بنظرية فلسفية في اللغة، ثم ينتهي إلى الذوق الشخصي الذي هو مرجعنا الأخير في دراسة الأدب، وما النقد إلا وضع مستمر للمشكلات البيانية، فلكل جملة أو بيت مشكلته التي يجب أن تعرف كيف نراها ونصفها ونحكم فيها، وهذا هو النقد الموضوعي كما رآه الجرجانـــي.

لقد اهتم عبد القاهر بكل تلك الحقائق، التي إذا كان لها في تفكير اليونان القدماء ما يماشيها وفي علم اللسان الحديث ما يؤيدها، فإن الفضل الأكبر في الوقوع عليها يرجع إلى مواهب عبد القاهر الفطرية المبتكرة الخصبة.